مقدمة

لم يبقَ في هذا الاوان بين طلاب الادب وحملة العلم في هذه الديار من يجهل ما لفن التأريخ عموماً ولا سيما ما تعلق منهُ بالاقطار الشرقية من رفعة القدر والمكانة وجزالة الفائدة والاهمية . غير ان اجل ما فيهِ خطراً ووقعاً واتم الذرائع المعينة عليهِ عائدةً ونفعاً هذا الفرع المعروف بتأريخ الكتب والمكاتب لما يترتب على تعريف احوالها ومصادرها ووصف مكنوناتها وودائعها والإفاضة في شرح اغراض المخطوطات منها والتنبيه على ما تضمنتهُ من غريبة ونادرة وبيان ما خفي من ترجمة المؤلف عند الاقتضآء من الفوائد والايضاحات التي تبسط للطالب وجوه البحث والتحقيق وتمكن المؤرخ من الاستقصآء في تدوين اخبار الصناعة والعلم واجتلآء نتائج الفكر وبضائع الفهم . وغنيّ عن البيان ما اتصل اليهِ اليوم هذا التأريخ في الاصقاع الغربية من الكمال والاتقان حتى لا تكاد تخلو خزانة من خزائن الكتب المصونة فيها من فهرست خاص لكل قسم من اقسامها يتضمن تفصيل ما اشتمل عليه بين مخطوط ومطبوع مشروحاً بغاية ما يمكن من الوضوح بقلم احد العلمآء المشهورين في معناهُ بالاجادة والتدقيق وسعة الرواية والاطلاع . ومن وقف على البرنامج الاخير الذي نشرهُ العلامة ساخو الالماني سنة ١٨٩٩ ووصف فيهِ المحفوظات السريانية في المكتبة الملكية في برلين يعلم فضل ما تميزت بهِ مثل هذه الفهارس الاوربية من فرائد التعليقات ونوادر

المُقتبسات التي خرجت بها عن طور الجرائد الموضوعة للضبط والاحصآء والحقتها بغمار المصنفات الادبية وذخائر الاسفار التاريخية

واما في الشرق فلشؤم الطالع الذي عم هذا القطر السوري على الخصوص لم يسلم عندنا من كل تلك الخزائن التي كان يلقاها الطالب قديماً حيث اتّجه فيهِ من الابنية الدينية والصروح العلمية ولا سيما في دمشق حاضرتهِ المشهورة الا فُضالة يسيرة عفَّت عنها يد الرغبة والحدثان وانحصرت لهذا العهد من المكاتب العمومية في الخزانة الظاهرية في دمشق والمكتبة الخالدية في القدس ومن ثمّ كان كل ما نُشر لدينا من فهارس الكتب والمكاتب العربية لا يتجاوز تعداد ما في هاتين الخزانتين تعداداً اقتُصر فيهِ على سرد الاسمآء مجردةً دون تتبع ولا استيفآء في النقل بحيث ان المطالع الذي يقع اليهِ برنامج المكتبة الظاهرية خاصةً لا يعلم من امرها ومأخذها وتاريخ مصير هذه الكتب اليها الا ما يقرأُهُ في الفاتحة من اسمآء المكاتب العشر التي نُقلت منها ولا يدري احياناً ما وراء هذه الارقام والالقاب المدلول بها على المخطوطات الا ما ينبئُ عنهُ الظاهر فقط فضلاً عما يفوتهُ مراراً ضمنها من المؤلفات والاجزآء التي لم يُنتبه لها عند التقويم والاحصآء

ولما كانت هذه الفهارس المطبوعة على هذا النحو من القصور والاخلال لا تفي بحاجة المتأدب والمؤرخ في هذا العصر ولا تكفي البتة لاظهار حقيقة ما كانت عليهِ المعارف والمكاتب سابقاً في هذا القطر فقد دفعتني آصرة البلدية والرغبة المخلصة في الخدمة الادبية الى ان اتولى بقدر ما يسعهُ الذرع القاصر سدّ جانب من هذه الثلمة في تاريخ وطني دمشق فعلقت منذ اربع

سنوات اقلّب مخطوطات خزانتها الظاهرية وأُطالع منها ما دَعَتِ الحاجة الى مطالعتهِ الى ان تم لي مراجعة كل كتبها الادبية خلا الحديث والفقه كما سيأتي شرح ذلك في مكانهِ . فاثبتُ باختصارٍ ما اجتمع لديَّ من هذه التعليقات والقيود في الجزء الاول من هذا الكتاب بعد ان صدرتهُ بمقدمة وجيزة نقلت فيها خلاصة ما عثرت عليهِ من اخبار المكاتب في دمشق وتاريخ المدارس التي أُخذت منها مشتملات الخزانة المشار اليها وختمت ذلك كلهُ بفصل وصفت فيهِ ما عاينت من حال المكاتب النصرانية ايضاً في هذه الحاضرة وصفاً حكيت فيهِ الواقع وان كان هنالك ما لا يجدر حقيقةً بالذكر . وكان في النية بادئَ بدء ان استقصيَ في هذا البحث واتوسع فيهِ على مثال الفهارس الاوربية ولكني وجدت ان ما يقتضيهِ ذلك من التكاليف لا قِبَل لي بهِ ولا فُسحة من الوقت تعين عليهِ فاجتزأت من الشرح بما هو امسّ ضرورةً ولم أُطل الا في مواضع معينة آثرت التنبيه عليها لما تبين لي فيها من الفائدة والغرابة للكتبي والمؤرخ

ويلي هذا الجزء الاول ثلاثة اجزاء أُخر جمعت فيها اخبار رحلتين رحلتهما الى صيدنايا ومعلولا وبيرود من ضواحي دمشق للتنقيب كذلك عن الكتب والمكاتب وتفقد آثارها الباقية هنالك . ولما كانت الديارات والكنائس مَظِنَّة وجودها في كل حين ومُستودَع اهمّ مخطوطاتها وذخائرها لم اجد بدًّا من تفصيل الكلام عنها في تعريف كل قرية ونقل اهم ما وقع اليّ من انبآئها واوصافها . واخترت التبسّط في كل ما تعلق بتاريخ الروم الملكيين الكاثوليكيين على الخصوص لقلة ابتذالهِ وجهل الكثير منهُ

واستطاعتي قول الحق فيهِ دون تحرّج ولا تهيّب اذ كانوا قومي الذين بهم اعتدّ واليهم انتمي . ولذلك ورد لي في جملة ما نقلتهُ من اخبارهم عدة مآخذ وانتقادات لا تخلو ان تثير غداً نيران الحنق والحرد عليّ في صدور الكثيرين لتمرُّن الاسماع عندنا على وَعْي التقريظ والتمليق واعتياد الكتاب والمؤرخين في كل الطوائف الشرقية تحاميَ الصدق والتقليدَ في الروايات دون تمحيص ولا تحقيق

وقد كانت الثلاثة الاجزآء الاولى معدةً للطبع منذ سنة ١٩٠٠ ولذلك ورد هذا التأريخ في بعض مواضع منها ثم اعترضت امور دون نجازهِ فبقي الكتاب باسرهِ موقوفاً الى هذه السنة . وقد فاتني فيه وصف بعض مخطوطات من تَرِكة المرحوم المطران يوسف داود السرياني لفراغ الكرسي وقتئذٍ وعدم انتظام شمل المكتبة . وسأُفرد مقالة خاصة اذكر فيها ايضاً ما لم يتهيأ لي الحاقهُ بالجزء الاول بعد طبعهِ من اسمآء المجلدات والكراريس التي أُخرجت هذا العام من الدشت في الخزانة الظاهرية وضُمّت الى سائر احصآءات الفهرست

ولست اجهل ان مثل هذا التأليف لا يتولى نشرهُ عادةً الا الجمعيات العلمية او نظارات المعارف لقلة الراغبين في مطالعتهِ وضعف الامل في انتظار المكافأة عنهُ . وانما سوَّل لي الإقدام عليهِ مع معرفتي بما يُذخَر لهُ غداً من البوار والاطّراح وَلَعي المحض بخدمة العلم والتنويه بمآثر الوطن وهو الولع الذي يُستسهَل معهُ كل صعب وشاق ولا يُبالى في جنبهِ بإنفاق او إخفاق